بلاغة الحجاج القرآني في آيات نفي السحر عن القرآن الكريم وعن الرسول الأمين

د٠ حصة بنت سعود الهزاني (*)

المقدمة :

نزل القرآن الكريم في قوم كانوا يعبدون الأوثان، ويتقربون بعبادتها إلى الله، وكانت لديهم معتقدات فاسدة؛ فجاء الخطاب في القرآن الكريم خطابا حجاجيا، يحاور عقولهم ويصحح عقائدهم الخاطئة، ويؤثر في آرائهم وسلوكهم، فاللغة التي جاء بها القرآن في ألفاظها وتراكيبها حجة عليهم، وجانب من جوانب الإعجاز القرآني، كما أشار إلى ذلك علماء الأمة، فقد ذكر السيوطي: " أن كتاب الله معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك، **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}** التوبة [٦] فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة" (١)، ولو كانت لديهم المقدرة على معارضته لعدلوا إليها قطعا للحجة، لكنهم عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء تارة أخرى، فتارة قالوا سحر، وتارة قالوا شعر، وتارة قالوا أساطير الأولين، كل ذلك من التحير والانقطاع(٢)، وقد كان من تخبطهم في هذه المعجزة، وفي محمد –صلى الله عليه وسلم– وهو الصادق الأمين، أن وصفوا الرسول – عليه السلام – بالساحر، والقرآن بالسحر، وما كان ذلك إلا لما شاهدوه من صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فقد كان من وجوه الإعجاز التي ذكرها علماء الأمة التأثير في المتلقي، يقول السيوطي: " فمنها : الروعة التي في قلوب

(*) أستاذ مساعد في البلاغة والنقد – كلية التربية بالخرج.

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢٥٣.

(٢) انظر: المرجع السابق .

السامعين وأسماعهم سواء المقر والجاحد، ومنها أنه لا يزال غضا طريا في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين، ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبا في كلام بشر".(١)

ولما كانت تهمة السحر من التهم التي نفاها الله –سبحانه– عن نبيه الكريم – صلى الله عليه وسلم– ودحض تهمتهم بالبراهين الساطعة والحجج الظاهرة، فقد كانت هذه الآيات مجالا خصبا لدراسة الحجاج فيها، ومحاولة الوقوف على أبرز التقنيات الحجاجية فيها، والكشف عن جانب الإعجاز القرآني، إضافة إلى إحراز الشرف بتأمل هذه الآيات، وبيان ما تضمنته من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

منهج الدراسة: ستقوم الدراسة على المنهج الوصفي، القائم على الاستقراء والتحليل، الاستقراء لخصائص الحجاج القرآني للآيات المتضمنة نفي السحر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وتحليل تلك الخصائص تحليلا بلاغيا، لمعرفة ما تضمنته من أساليب في تحقيق غرض الحجاج.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة ومبحثين، ثم خاتمة البحث وفهارسه.

ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، والدراسات السابقة، وخطة البحث ومنهجه.

التمهيد، وفيه:

أولا: تعريف الحجاج: لغة واصطلاحا.

ثانيا: لمحة موجزة عن وجود الحجاج في الدرس البلاغي لدى علماء البلاغة.

ثالثا: آيات نفي السحر عن القرآن الكريم والرسول ﷺ .

* **المبحث الأول بعنوان:** بلاغة الحجاج القرآني في آيات نفي السحر عن القرآن الكريم.

---

(١) المرجع السابق: ٢٦٣

* **المبحث الثاني:** بعنوان: بلاغة الحجاج القرآني في نفي السحر عن الرسول ﷺ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نفي أن يكون الرسول ﷺ ساحرا .

المطلب الثاني: نفي أن يكون الرسول ﷺ مسحورا .

ثم الخاتمة، ذكرت فيها نتائج البحث التي توصلت إليها، وبعض التوصيات .

التمهيد

أولا: تعريف الحجاج: لغة واصطلاحا:

الحجاج لغة : قال الزمخشري " احتج على خصمه بحجة شهباء، وبحجج شهب، وحاج خصمه فحجه، وفلان خصمه محجوج، وكانت بينهما محاجة وملاجة، وسلك المحجة، وعليكم بالمناهج النيرة، والمحاج الواضحة" [١]، وجاء في لسان العرب: "الحجة: البرهان؛ وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم؛ وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محاجج، أي جدل" [٢]، وذكر الفيروزآبادي: " الحجة بالضم: البرهان، والمحاجج: الجدل" .[٣]

من تلك المعاني اللغوية، يتضح أن الحجاج منذ نشأته يرتبط بالدليل والخصومة والجدال، ولا يعني ذلك أن الحجاج مرادف للجدال؛ إذ إن الحجاج أوسع و أعم من الجدال، فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدلا، فالحجاج قاسم مشترك بين الجدل والخطابة، لقد حدد الحجاج بأنه سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو هي الطريقة التي تطرح بها الأدلة، هذه الأدلة قد تكون قياسا أو استقراء، فالحجاج قد يكون جدليا مرتبطا بالاستدلال غايته التأثير العقلي، وقد يكون خطابيا مرتبطا بالجمهور غايته التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات .[٤]

---

(١) أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر، بيروت، ط١ مادة: حجج.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ، مادة (حجج) .

(٣) القاموس المحيط،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: أنس الشامي و زكريا أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط:د ٢٠٠٨ مادة: حجج .

(٤) انظر :الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د.عبدالله صولة، دار الفارابي، تونس ط:٢، ٢٠٠٧، ص ١٦ وما بعدها .

قد عرّف المؤلفان بيرلمان وتيتكاه هذا النوع من الحجاج بأنه : " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأدلة إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" .(١)

وهذا التعريف منبثق من الأثر الذي يتركه الحجاج، فالغاية من الحجاج ليس الإقناع، بل الاقتناع والتأثير على المتلقي وتحريك عقله، وبعثه على العمل المطلوب في الوقت المناسب، فالحجاج يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع، ويرتكز على آليات وتقنيات معينة تهدف إلى التأثير في المتلقي، ونجاح هذه التقنيات مرتبط بمدى تحقيقه اقتناع المتلقي، وقد قسم بيرلمان هذه التقنيات إلى قسمين، أحدهما: الحجج القائمة على الوصل، وهي التي تقرب بين عناصر متباينة، وتمكن من قبول المقدمات إلى الوصول للنتائج، والثاني: الحجج القائمة على الفصل، وهذا النوع يسعى إلى الفصل بين عناصر ربطت اللغة، وتؤلف وحدة واحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية.(٢)

مما سبق يتضح أن الحجاج عند بيرلمان وتيتكاه يعتمد على العقل (إذعان العقول) والكلام (تقنيات الخطاب) فهي موجهه إلى الفكر .(٣)

أما الحجاج عند ديكرو وأوسكمبر فإنه حجاج تقني، فكل كلام حجاجي بطبعه، فقد حصراه داخل اللغة، لا في البحث عما هو واقع خارجها فهو: " فعل لغوي وظيفته أساسية للغة الطبيعية، ثم إنه مؤشر له في بنية اللغة، فهناك أدوات وروابط وعبارات لغوية يتمثل دورها الأساسي في القيام بالعمليات الحجاجية (٤)، وتكمن وظيفة الحجاج عندهما في التوجيه، ويحصل هذا التوجيه في مستويين:

---

(١) الحجاج في القرآن، د. عبدالله صولة ص٢٧.

(٢) انظر: في نظرية الحجاج، د. عبدالله صولة ص ٨١.

(٣) انظر: المرجع السابق٧٧ .

(٤) السلالم الحجاجية في القصص القرآن:(رسالة دكتوراه) للطالبة: بوسلاح فايزة، إشراف د. بن عيسى عبدالحليم، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٤، ص ٢٤.

مستوى السامع ومستوى الخطاب نفسه، مع ما بين المستويين من تداخل، فتوجيه السامع من خلال التأثير فيه وإقناعه، أما توجيه الخطاب يكون(قول ١) مؤديا إلى (قول٢) صراحة أو ضمنا، و إذا كان (قول٢) ضمنيا فإن ضمنيته تكون إما على سبيل الاقتضاء أو على سبيل المفهوم خاصة، على أن التوجيه هو على الحقيقة توجيه للسامع والخطاب معا. (١)

أما ماير فإن نظرته للحجاج مرتبطة بوظيفة الكلام التساؤلية، فالكلام يعني إثارة سؤال، ليس المقصود بالسؤال الاستفهام، إنما المقصود به ضرورة الاختيار، أي أنه دعوة إلى اتخاذ القرار، فالسائل حين يطرح سؤالا فإنه يدعو المتلقي إلى اتخاذ قرار على أرض الواقع، والناس عندما يتكلمون هم في الحقيقة يسائلون ويستشكلون، وهذا ما يولد الحجاج الذي يفرز بدائل لمعالجة السؤال، ومن ثم ينجم عنه مواجهة حجاجية تشتغل فيها آليات الإقناع، ولذا فإن طرح السؤال في الخطاب وسيلة من وسائل الإثارة التي تدفع المتلقي لاتخاذ موقف، فالحجاج عند ماير :" دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه "، فالجملة فيها إشارات حجاجية تؤدي إلى ظهور الضمني في ضوء ما يمليه المقام، وتلوح هذه الإشارات بنتيجة ما تكون مقنعة أو غير مقنعة، والمتلقي في نهاية المطاف وهو يقرأ الحجج الصريحة أو الأجوبة في خطاب ما يستنتج أسئلته ضمنيا من خلال الأجوبة المقدمة في النص مستعينا بالمعطيات التي يوفرها المقام.(٢)

تعد نظرية الحجاج من أهم نظريات الدرس اللساني في العصر الحديث، فهي تهتم بدراسة تقنيات الخطاب التي تجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من أفكار وآراء، وأنجع الحجاج ما يؤثر في السامعين كوسيلة من وسائل الإقناع.

---

(١) انظر: الحجاج في القرآن، د. عبدالله صولة ،ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) انظر: الحجاج في الحديث النبوي–دراسة تداولية–د. آمال يوسف المغامسي، الدار المتوسطية للنشر، ط١ :٢٠١٦ ، ص١٠٥، وما بعدها .

ثانيا: لمحة موجزة عن وجود الحجاج في الدرس البلاغي لدى علماء البلاغة:

ولو أردنا تتبع الحجاج عند العرب، سنجد أن جذوره كانت موجودة منذ العصر الجاهلي، فالعرب تمارس الحجاج في جدالها ومناظراتها وأحكامها النقدية؛ فقد كانت الأسواق الأدبية تؤدي وظيفة كبيرة في الممارسات النقدية الممزوجة بالأنشطة الحجاجية، فالتأثر بالشعر إعجابا أو إعراضا كان يقوم على مبدأ الإحساس والتعليل، والشواهد على ذلك كثيرة في النقد العربي، أذكر منها على سبيل المثال قصة النابغة الجعدي مع حسان بن ثابت رضي الله عنه، حين كانت تضرب له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ، ويعرض عليه الشعراء قصائدهم، وأنشده حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحـــى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولـدنا بني العنقـــاء وابني محـرق فأكرم بنا خالا و أكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: " أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك "، فنقد النابغة لحسان معلل بالحجج، فالعرب تستخدم جمع الكثرة في مقام الفخر لا جمع القلة، وتفخر بالآباء والأجداد لا بالأبناء[1].

وفي عصر صدر الإسلام اصطدمت بلاغة العرب ببلاغة أعلى منها قدرا، وأراد الله سبحانه أن يظهر عجزهم بالمعجزة الخالدة، فكان القرآن الكريم وثيقة دالة على تواضع بلاغتهم أمام بلاغة خالقهم، فاستدعوا إلى المحاججة بالإتيان بمثله أو بمثل أقصر منه، فانخرطوا في حجاج أوعر من المحاججة النقدية؛ لأنهم باتوا يواجهون ربا يقارعهم الحجة بالحجة.[2]

---

(١) انظر : في النقد الأدبي القديم عند العرب، د. مصطفى إبراهيم، مكة للطباعة، ١٤١٩هـ، ص٣٥ .

(٢) انظر: أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير(بحث منشور)، أ. محمد يطاوي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات و آدابها، العدد (٢١)، ص١٤٧.

ويمضي الحجاج جنبا إلى جنب مع البلاغة في خدمة الخطاب والتخاطب؛ فكان من أبرز المؤلفات العربية التي تؤكد التواشج بينهما (البيان والتبيين)، فالجاحظ يطرح سؤالا : ما البلاغة؟ فيجيب على تساؤله: " وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر "(١).

أما أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) فقد تحدث عن الحجاج تحت عنوان (في الاستشهاد والاحتجاج) وذكر أن هذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وأنه يجري مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن يأتي بمعنى ثم يؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته، وذكر شواهد على ذلك من النثر و الشعر، ومنها قول الشاعر:

إنما يعشق المنايا من الأقـــــوام من كان عاشقا للمعانـــي

وكذلـــــك أول مايكـــــسر منهن في الحرب العوالي" (٢)

أما عبدالقاهر الجرجاني فقد أسس نظرية النظم، وجعلها القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال، فيقول: " اعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء

(١) البيان والتبيين،لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ ١/ ٩٥.

(٢) ينظر : كتاب الصناعتين لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري، ت: علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٤١٦.

منها "[١]، فجعل للنظم طاقة حجاجية تؤثر في المتلقي، وأن على المتكلم أن ينتقي من اللغة وأحوالها ومعاني النحو ما يتلاءم مع المقام، فيعرف لكل مقام موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له .

كما تحدث عن الاستعارة و التمثيل والكناية، وأن الجميع يرى أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأشار إلى أن المزية في تلك الأجناس في طريقة إثبات المعنى وتقريره، فالمزية في (رأيت أسدا) على (رأيت رجلا لايتميز عن الأسد في شجاعته و جرأته) ليست في أن الأولى أفادت زيادة في مساواته بالأسد، بل لأنها أفادت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثبات المساواة له، فتأثير الاستعارة ليس في ذات المعنى بل في إيجابه والحكم به[٢].

وقد أشار السكاكي إلى الطاقة الحجاجية في التشبيه والاستعارة والكناية، ويشترط الاستدلال لتحقيق البلاغة وظيفتها الإقناعية، فالمتكلم عليه نظم الحجة والدليل في خطابه ليتمكن من التأثير في السامع، يقول: " إذا تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة تراكيب خواص الكلام ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة واحدة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان"[٣].

---

(١) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤ ص ٨١.

(٢) انظر : دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص ٧١.

(٣) مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، ت: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ، ص ٥٤٣ .

ومما سبق، يتضح أن البلاغة العربية اهتمت بالحجاج عن طريق مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فكل خطاب لا بد أن يلائم المقام من خلال اختيار الألفاظ المناسبة والعلاقات التي تربط هذه الألفاظ، وملاءمة الخطاب للغرض المقصود ولأحوال السامعين وتكمن أهمية الحجاج في اهتمامه بالتركيز على دراسة التقنيات والآليات التي يعتمد عليها المتكلم ويوظفها للتأثير على المتلقي؛ حتى يحقق الخطاب وظيفته على أسس منهجية وعلمية دقيقة تسهم في تغيير شكل الخطاب وطرق الاستدلال.

ثالثا: آيات نفي السحر عن القرآن الكريم:

أولا: مواضع الآيات التي ورد فيها نفي أن يكون القرآن الكريم سحرا مبينا:

الموضع الأول في قول الله –تعالى: **{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)}**الأنعام [٧-١٠]

الموضع الثاني في قول الله –تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)}** هود [٧، ٨].

الموضع الثالث: قوله تعالى:**{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)}** الأنبياء [٣، ٤].

الموضع الرابع: قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)} سبأ [٤٣-٤٦].

الموضع الخامس: قوله تعالى: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)} الصافات [١٢-١٩].

الموضع السادس: قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)}الزخرف [٣٠-٣٢].

الموضع السابع: قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)} الأحقاف [٧-٩].

الموضع الثامن:قوله تعالى **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)}** القمر [٢-٥].

الموضع التاسع:قوله تعالى: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}** المدثر [١١-٣٠].

ثانيا: مواضع الآيات التي ورد فيها نفي أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ساحرا :

الموضع الأول: قوله تعالى: **{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)}** يونس [٢، ٣].

الموضع الثاني: قوله **تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)}** سورة ص [٢-٥].

الموضع الثالث: قوله تعالى: **{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**

فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)} الذاريات [٥٢-٥٥].

ثالثا: مواضع الآيات التي ورد فيها نفي أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مسحورا:

الموضع الأول: قوله تعالى: **{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)}**الإسراء [٤٧-٥٢]

الموضع الثاني : قوله تعالى **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)}**الفرقان [٧-٩].

**

المبحث الأول

بلاغة الحجاج القرآني في آيات نفي السحر عن الرسولﷺ:

سأتناول في هذا المبحث الآيات التي ورد فيها نفي السحر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وبيان ما تضمنته من حجاج، وكشف الأساليب البلاغية التي حققت هذا الحجاج، وكيف كانت وسيلة ناجعة في نفي السحر عن الرسول ﷺ، ودحض افتراءات المشركين، ومزاعمهم الباطلة، وقد ورد ذلك في تسعة مواضع من القرآن الكريم، سأذكرها مرتبة على حسب ورودها في المصحف الكريم.

الموضع الأول في قول الله –تعالى: **{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)}** الأنعام [٧-١٠].

هذه الآيات –كما يذكر ابن كثير في تفسيره – " أنها إخبار عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه فلمسوه بأيديهم أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا "[1]، فالمقام مقام عناد ومكابرة وإعراض عن الحق ومنازعة، فلا غرو –والحالة هذه – أن يُرمى رسول الله ﷺ بكل نقيصة، ويفترى عليهم أعظم الافتراء، ولذا فها هم يزعمون أن القرآن سحر مبين، كما فيه تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن هذه الصفات في الكفار هي ديدنهم وطبعهم، وقد طلبوا من الرسول – صلى الله عليه وسلم– حجة تقنعهم، فطلبوا كتابا في قرطاس، ومعه ملائكة يشهدون أنه من عند الله، فجاء الرد عليهم بحجة أقوى من

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين بن كثير، قدم له عبد القادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ. ٢١٧/٣ .

حجتهم، وهو أنه لو نزل القرآن بهذه الصورة ولمسوه بأيديهم لقالوا: **{سِحْرٌ مُبِينٌ}**، ولو نزلت الملائكة لكان هلاكهم دون إمهال لهم.

فحجة الكفار : لو نزل القرآن في قرطاس آمنا ← لم ينزل القرآن في قرطاس ← لا نؤمن بالقرآن.

والرد على حجتهم : لو نزل القرآن في قرطاس كان سحرا ← لم ينزل القرآن في قرطاس ← القرآن ليس سحرا.

والتعبير بـ (لمسوه) فيه مبالغة مضمنة لتكذيبهم بالقرآن، " فلمسوه بأيديهم: يريد أنهم بالغوا في ميزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: هذا سحر مبين "[1]، وقوله (بأيديهم) تأكيد لمعنى اللمس، فاللمس يكون باليد، وفيه تمهيد لقوله: **{لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}**، لأن السحر تخيلات لا تُلمس، والإظهار في موضع الإضمار **{لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** ولم يقل: (لقالوا) للدلالة إلى أن تعنتهم بسبب كفرهم، ولهذا الإظهار علاقة وثيقة بموضوع الحجاج في هذه الآيات، وفي بيان سبب رميهم للقرآن الكريم أنه سحر مبين، وممن أشار إلى هذه القضية وقررها الطاهر بن عاشور يقول: "وللتمهيد لقوله: **{لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** ،لأن المظاهر السحرية تخيلات لا تلمس، وجاء قوله : **{لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** دون أن يقول: لقالوا، كما قال: فلمسوه؛ إظهارا في مقام الإضمار؛ مبين أنهم يغالطون أنفسهم، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم، ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة".[2]

---

(١) المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ. ٢/٢٧٠.

(٢) التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس:١٩٨٤م، ١٤٢/٧.

وفي قوله: "وهذا شأن المغلوب المحجوج" إشارة إلى أن المقام مقام حجاج، وأن قولهم سحر مبين، هي محاولة فاشلة منهم، وافتراء فاضح، وموقف مشين منهم تجاه الرسول –عليه الصلاة والسلام – ورسالته، فقد أعيتهم الحجة، وغلبتهم المحاجة.

والتعبير بـ (حاق) بصيغة الماضي أدى وظيفة حجاجية، " واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكن ذلك منهم، وعدم إفلاته أحدا منهم، وإنما جيء بالموصول في قوله (بالذين سخروا) دون الساخرين؛ للإيماء إلى تعليل الحكم، وهو قوله (فحاق) "[1].

وفي الإشارة إلى الأمم السابقة في قوله: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)}** الأنعام [١٠] دلالة مهمة في موضوع الحجاج، ففيها إشارة إلى أن الاستهزاء بالرسل سنة الأقوام الكافرة مع أنبيائهم، فلا عجب أن يرمي قومك القرآن بالسحر المبين، فذلك دأب المشركين بالاستهزاء والإعراض، فالتكذيب والافتراء سنة متبعة في القوم الكافرين، وفي ذلك وعيد لهم وتهديد في خاتمة الحجاج أن يصيبهم ما أصابهم من العذاب والهلاك، يدل على ذلك: قول ابن عطية الأندلسي في تفسيره لهذه الآية: "هذه تسلية للنبي ﷺ بالأسوة في الرسل وتقوية لنفسه على محاجة المشركين وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين وحاق معناه نزل وأحاط وهي مخصوصة في الشر".[2]

وقد تضمن كلامه دلالة صريحة أن لهذه المواساة أثرا كبيرا في موضوع الحجاج يدل على ذلك قوله: (وتقوية لنفسه على محاجة المشركين)، ففي التسلية والمواساة شد من أزره وتقوية له؛ ليحاجهم، ويدحض حججهم وشبهتهم في أن القرآن سحر مبين.

---

(١) التحرير والتنوير: ٧/ ١٤٧ .

(٢) المحرر الوجيز: ٢/٢٧٠.

الموضع الثاني في قول الله –تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)}** هود [٧، ٨] .

الخطاب في هذه الآية موجه للرسول – صلى الله عليه وسلم، وهي إخبار عن حال الكافرين وإنكارهم للبعث، ووصفهم ذلك (السحر المبين) فهم يزعمون أن ذلك القول من الأقوال التي يقولها السحرة؛ تماديا في العناد " يقولون ذلك على القطع والتوكيد حتى لكأن لهم عليه برهانا مبينا أو حجة بالغة "[١]، فالإشارة بـ (هذا) إلى القرآن الكريم، ووصفهم له بأنه سحر أي باطل، فإذا كان القرآن سحرا وباطلا فإن البعث باطل أيضا؛ لأن " الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع "[٢]، فالحجة التي ساقها الكفار:

القرآن سحر و باطل ← البعث مذكور في القرآن ← البعث باطل.

وقد تضافرت التقنيات اللغوية في دحض حجتهم، فجاء التعبير بلفظ الماضي (حاق) للدلالة على المستقبل للمبالغة في التأكيد والتقرير[٣] .

كما ابتدأت الجملة في قوله –تعالى: **{أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ}** بحرف التنبيه (ألا)؛ لإثارة انتباه المتلقي، وفصلت هذه الجملة تفصيل المحاورة لإدخال التهديد والروع في أنفسهم[٤]، وقد جاء القصر باعتباره تقنية حجاجية، فالقصر: " تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ .. كقولك : زيد

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١١٠٨/٦.

(٢) مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ – ١٩٩٠م ، ٣٢٠/١٧ .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب: ١٧/ ٣٢١.

(٤) انظر : التحرير و التنوير: ١٢/ ١١.

قائم لا قاعد، لمن يتوهم زيدا على أحد الوصفين من غير ترجح"[1]، فالكفار في قصرهم القرآن الكريم على السحر، جعلوا ذلك مبررا لهم بعدم تصديق البعث؛ لأن البعث مذكور في القرآن، والقرآن في اعتقادهم الفاسد (سحر)، وبالتالي فإن بعثهم بعد الموت من قبيل السحر، وهذا دلالة على بطلان معتقدهم، وفساد عقولهم، لذلك جاء أسلوب القصر (إن هذا إلا سحر مبين) بالنفي والاستثناء لأنه في سياق الحديث عن عقيدة فاسدة، ومخاطبا منكرا أشد الإنكار أن يكون ما يدعوهم إليه سحر.

وفي قوله تعالى: **{وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** دلالة على أن موقفهم من القرآن، وسبب رميه بالسحر المبين كان دافعه إنكارهم للبعث والنشور، فهم يعلمون حقيقة القرآن الكريم علم اليقين، ولكنهم يكابرون، ويجعلون رده والكفر به سببا لإنكار بعثهم ونشورهم بعد موتهم، ولذا فمعنى قوله: **{وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** " أي ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين، ألا وهو الحق ا لمبين".[2]

وهذا يعني أن قولهم سحر رد فعل عن إنكارهم ليوم البعث، وإذا عرف السبب بطل العجب؛ وسقطت حجتهم، وانكشف زيف دعواهم .

الموضع الثالث: قوله تعالى : **{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)}** الأنبياء [٣، ٤]

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٨١ وما بعدها بتصرف.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ، ٣٧٧/١.

جاءت حجتهم في عدم الإيمان والتصديق بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– بسبب معتقدهم الباطل في أن الرسول لا يكون إلا ملكا، و محمد –صلى الله عليه وسلم– بشر مثلهم؛ فكيف يقبلون ما جاء به ؟![1] فالحجة التي ساقها الكفار و اعتمدوا عليها:

الرسول لا يكون إلا ملكا ← محمد صلى الله عليه وسلم بشر ← محمد ليس رسولا من الله .

والغريب أن يقولوا هذا القول، وذلك الافتراء في القرآن أنه سحر وقلوبهم لاهية غافلة، لم تتدبر في القرآن، ولم تنظر فيه، ولم تعرف حقيقته، فمن الطبيعي أي يكون هذا موقفهم من القرآن أنه سحر بدليل (لاهية قلوبهم) فهم لم يقبلوا على القرآن، ولم يعرفوا ما فيه، ولذا ذكروا أنه سحر، فهم يستمعون القرآن وهم عنه غافلون، فأنى لهم وهذه حالتهم أن يعرفوا حقيقته، ويكتشفوا طبيعته، فلا عجب أن يزعموا أنه سحر مبين، ولذا فهم" لا يتدبرون حكمه، ولا يتفكرون فيما أودعه الله من الحجج عليهم، وأسروا النجوى فقالوا هل هذا الذي يزعم أنه رسول من الله أرسله إليكم إلا بشر مثلكم، يقولون هو إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمدًا – صلى الله عليه وسلم– فوصفهم بالظلم بفعلهم ".[2]

وقد جاء الاستفهام الإنكاري للتوبيخ لبعضهم البعض، إذ كيف يقبلون القرآن، و يحضرونه وهو سحر ؟![3] كما جاءت أداة الاستفهام (هل) للدلالة على

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت)،٦/٤٤٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م، ١٨/٤١٠.

(٣) انظر البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٧/٤٠٩ .

النفي، أي: ماهذا إلا بشر مثلكم، وكثرة ورود الاستفهام في هذا المقام للدلالة على اضطرابهم في مقالاتهم – والله أعلم – فينسبون السحر للرسول –صلى الله عليه وسلم، وتارة يقولون أضغاث أحلام، وتارة شاعر " وهكذا هو المبطل لا يثبت على قول بل يبقى متحيرا "[١].

والقصر في هذه الجملة **{هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}** قصر موصوف على صفة في مقام إثبات حجتهم بأن الرسالة لا تكون بشرية " وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنّى يؤفكون "[٢]، وقد جاء الإضراب بـ (بل) لدحض حجتهم، فهم يتخبطون في أقوالهم ويضطربون في حكمهم على القرآن الكريم والرسول –صلى الله عليه وسلم .

كما أن التناسب بين الآيات جاء ملائما لحال السياق في دحض حججهم الباطلة، فقولهم: **{وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}** أي: أتأتون السحر وبصركم سليم، وأرادوا به العلم البديهي، فعبروا عنه بالبصر لأن المبصرات لا يحتاج إدراكها إلى تفكير[٣]، "فجاء الوعيد – وهو نوع من أنواع الحجاج **{قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** أي : ربي يعلم القول " لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه، فكأنه قال: إنكم وإن أخفيتم قولكم، وطعنكم فإن ربي عالم بذلك، وأنه من وراء عقوبته؛ فتوعدوا بذلك لكي لا يعودوا لمثله "[٤].

الموضع الرابع: قوله تعالى : **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ**

(١) البحر المحيط: ٤٠٩/٧.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٤٥/٦.
(٣) التحرير والتنوير: ١٤/١٧ .
(٤) مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٢١.

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)} سبأ [٤٣-٤٦].

أخبر الله -سبحانه- في هذه الآيات عن حال المشركين عندما تتلى عليهم آيات الله البينات الواضحات وتكذيبهم لها، وقد احتجوا في ذلك بأنها تتلى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم، وهم يرون أن رسول الله رجل يريد صدهم عن دين آبائهم:

والغريب أن يصدر منهم هذا القول **{إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** في الوقت الذي تتلى عليهم آيات القرآن بينات واضحات، ولذا فذكر هذه الحقيقة في هذا المقام دلالة مهمة في مقام الحجاج، فلم يكن أمر القرآن عليهم خافيا ولا غامضا، ولكنه الكفر والعناد من هؤلاء المشركين، وقد أشار إلى هذا المعنى الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الآيات يقول: " وايراد حكاية تكذيبهم الرسول مقيدة بالزمن الذي تتلى عليهم فيه آيات الله البينات تعجيب من وقاحتهم؛ حيث كذبوه في أجدر الأوقات بأن يصدقوه عندها؛ لأن وقت ظهور الحجة صدقه لكل عاقل متبصر، وللاهتمام بهذا الظرف العجيب من متعلقة قدم الظرف على عامله، والتشويق إلى الخبر الآتي بعده، وأنه من قبيل البهتان والكفر البواح، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن، ووصفها بالبينات لأجل ظهور أنها من عند الله لإعجازها إياهم عن معارضتها، ولما اشتملت عليه معانيها من الدلائل الواضحة على صدق ما تدعو إليه، فهي محفوفة بالبيان بألفاظها ومعانيها".[1]

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/٢٢٥.

وفي حجة هؤلاء المشركين: أن الرسول رجل← هذا الرجل مجنون ← الكلام الذي يتلوه سحر مبين.

وقد كان للقصر باعتباره تقنية حجاجية حضور كثيف في هذه الآيات في سياق حججهم، وفي سياق دحض هذه الحجج، وذلك في قوله تعالى: **{مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ}، {مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى}، {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ}، {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}** فقد أدى القصر وظيفته الحجاجية من خلال النفي والإثبات في التوكيد وتقرير الحقائق.

وللإظهار في مقام الإضمار في قوله: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** دلالته المهمة في مقام الحجاج، وفي دحض حجتهم بأن القرآن سحر مبين، فلو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: وقالوا للحق لما جاءهم، فقد سبق الحديث عنهم في صدر الآية، وقد جاء الإظهار؛ ليكشف صفة الكفر ويبرزها في هذا المقام، وفي ذلك دلالة أن الكفر هو الباعث الرئيس لقولهم عن القرآن سحر مبين، فلم يكن القرآن سحرا مبينا في حقيقته، وهم يعلمون ذلك، ولكنه الكفر الذي أعمى بصائرهم، فأطلقوا لألسنتهم العنان، ورموه بكل نقيصة، وألصقوا فيه كل تهمة، ولولا كفرهم لما قالوا فيه ما قالوا.

وفي لفظة الحق – أيضا – إظهار في مقام الإضمار، فقد تقدم ذكرها في قوله (آياتنا)، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل (له)، وفي إظهاره دلالة مهمة في مقام الحجاج هنا، وإبطال لقولهم سحر مبين، فأني للحق أن يكون سحرا مبينا، ففي إثبات هذه الصفة وذكرها هنا رد وإبطال لمزاعمهم أن القرآن سحر مبين، فالسحر باطل وضلال، والباطل والحق لا يجتمعان فهما ضدان.

أما قوله سبحانه: **{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ}** فقد جاء القصر بـ (إنما)، لأن السياق هنا لا يتحمل القوة، بل يدعو الفكر إلى التأمل والتدبر، " وتجد الكلام السابق عليها في أكثر الأساليب كأنه تهيئة للفكرة التي دخلت عليها، وتمهيد لها،

وتجد هذا التمهيد يقوى حتى لتكاد النفس اليقظى والفهم المتسارع يدرك الفكرة التي دخلت عليها قبل قراءتها أو سماعها "[١].

كما أن التكرار لـ (قل) بما يحمله من طاقة حجاجية جاء ملائما للسياق، وقد عمد القرآن الكريم إلى هذا الأسلوب في مواطن كثيرة لما له من قيمة بلاغية في توثيق المعنى في النفوس.[٢]

وفي هذا الأمر **{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ}**، وما جاء بعدها بيان لهم للطريقة الصحيحة لمعرفة حقيقة القرآن الكريم؛ ليدركوا إن كانوا صادقين – أن القرآن حق منزل من عند رب العالمين ولم يكن سحرا مبينا كما يزعمون، والمعنى: "أي أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه أن تقوموا لله وهو القيام من مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معرضين عن المراء والتقليد، أو فرادى واحدا واحدا؛ فإن الازدحام يشوش الخاطر، ويخلط القول، ثم تتفكروا في أمر محمد، وما جاء به؛ لتعلموا حقيقته، فتعلموا ما به من جنون يحمله على ذلك".[٣]

الموضع الخامس: قوله تعالى : **{بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)}** الصافات [١٢-١٩].

---

(١) دلالات التراكيب،محمد أبو موسى،مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٣٥، ص ١٧٣.

(٢) انظر: خصائص التراكيب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٥هـ، ص ٢٩٣.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٥٠ .

الخطاب في هذه الآية موجه للرسول –صلى الله عليه وسلم– في سياق الرد على الكفار الذين أنكروا البعث مع وجود الحجة القوية الظاهرة، فقوله تعالى: **{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)}** حجة ظاهرة البيان، فالقادر على الأشد الأشق وهو خلق السماء والأرض وما بينهما، قادر على الأسهل الأيسر، وهو خلقهم وبعثهم " ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة، وهذا في موضع التعجب الشديد، فإن مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة، كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه "[١]، فحجتهم:

التعجب والسخرية من الآيات ← البعث من الآيات ← السخرية من البعث ووصفه بالسحر.

ومعنى هذه الآيات –كما يذكر الإمام الطبري–في تفسيره: " وإذا ذكر هؤلاء المشركون حجج الله عليهم؛ ليعتبروا ويتفكروا فينيبوا إلى طاعة الله لا يذكرون، يقول، لا ينتفعون بالتذكير فيتذكروا، إن هو إلا سحر مبين: وقال هؤلاء المشركون من قريش لمحمد ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر مبين، يقول يبين لمن تأمله ورآه أنه سحر".[٢]

وفي قوله (حجج الله) إشارة مهمة في مقام الحجاج، وهي أن آيات القرآن الكريم هي الحجة البالغة، وهي الحجة الظاهرة، وهي الحجة التي تعلو ولا يعلى عليها، وكأن موقف المشركين من القرآن ومن الرسول –عليه الصلاة والسلام – اقتضى هذه المحاجة وهذا الحجاج.

و (بل) في قوله –تعالى– **{بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}** " للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم عجب"[٣]؛ لأن البعث مما لا يقبل الإنكار،

(١) مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٣٢٣.
(٢) جامع البيان عن تفسير آي القرآن: ٢٣/٢١.
(٣) التحرير والتنوير: ٩٥/٢٣.

وأعجب من إنكارهم وأبلغ منه: أنهم يسخرون ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار حتى زادوا السخرية القول للحق، ومن العجب –أيضا: أنهم إذا ذكروا لا يذكرون ذلك، فإن كان جهلا فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، ومن العجب –أيضا– أنهم إذا أقيمت عليهم الدلالة، وذُكروا بالآيات التي يخضع لها فحول الرجال، واللباب الألباء يسخرون منها ويعجبون، ومن العجب –أيضا– قولهم للحق لما جاءهم: إن هذا إلا سحر مبين: فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها وهو الحق في رتبة أخس الأشياء وأحقرها "[1] .

وللإضراب حضوره في موضوع الحجاج، ففي الإعراض عن كلامهم والإضراب عنهم، والانتقال من الشبهة إلى الرد عليها، ومن ذكر الحجة إلى دحضها من الحجاج في الصميم، ولذا يكثر ورودها في موضوع الحجاج، كما في هذه الآيات.

والاستفهام التعجبي **{أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)}** في سياق إنكار البعث والسخرية من ذلك، حيث تعجبوا من بعث آبائهم الأولين، وهذا أقصى ما لديهم وأبعد ما تصل إليه عقولهم؛ لأن بعث آبائهم أشد غرابة وأكثر استبعادا، فكان الجواب عليهم (نعم)" وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب؛ لأنه ذكر في الآيات المتقدمة البرهان اليقيني أنه أمر ممكن، فلما قامت المعجزات على صدق محمد – صلى الله عليه وسلم – كان واجب الصدق، فكان مجرد قوله نعم دليلا قاطعا على الوقوع "[2].

وذكر موقهم من البعث، وذكر نفيه له دلالة مهمة هنا، فموقفهم من البعث ونفيهم له هو السبب الحقيقي والرئيس وراء موقهم من القرآن الكريم، ومن الرسول –عليه الصلاة والسلام، فلأنهم منكرو البعث، ولأن الحجة تعوزهم، والأدلة

(١) تيسير الكريم الرحمن: ١/ ٧٠١.

(٢) مفاتيح الغيب: ٣٢٥/٢٦.

تنقصهم، فما وجدوا بدا من أن يقولوا عن القرآن إنه سحر مبين؛ لاشتماله على آيات البعث والنشور، فهذه هو سبب هذه الحجة، وهذا باعثها، وإلا فإن القرآن الكريم ليس سحرا، بل هو آيات بينات، وليس سحرا مبينا.

ولذا فهم "ينفون نفيا قاطعا أن يكون هناك بعث، فإن كان فهو شيء لاواقع له، وإنما هو من حيل السحر، **{قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)}** هو جواب على أسئلتهم تلك المكذبة المنكرة، إنه تحد لهذا الإنكار، وإهدار له، ولهذا كان الجواب (نعم)، وكأنه جواب عن سؤال يريد صاحبه أن يعرف الحقيقة، وينشد المعرفة "[١].

والتعبير بالماضي (وقالوا) في سياق الحديث عن المستقبل للدلالة على التحقق والتقرر[٢]، وجاءت الحجة القاطعة على البعث وقدرته – سبحانه–على ذلك بأسلوب القصر **{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)}** فالبعث صيحة واحدة بالنفخ في الصور فإذا الناس قيام، وجاءت الحجج في هذه الآية في أحسن ترتيب، فقد بين سبحانه إمكانية البعث بالدليل العقلي، وبيّن وقوع ذلك بالدليل السمعي، ومن المعلوم أن الزيادة على هذه البيان كالأمر الممتنع .

الموضع السادس: قوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)}** الزخرف [٣٠-٣٢].

في هذه الآيات يذكر – سبحانه– عن كفار قريش: "على جهة التقريع بأنهم قالوا للقرآن هذا سحر، وأنهم كفروا به، وإنما جعلوه بزعمهم سحرا من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه، فجعلوه لذلك سحرا، ولم ينظروا إلى الفرق،

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٩٧١/١٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٨٧.

في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين، والمفارق في السحر يفارق عن خلل في ذهنه" [1]، فقد كانت حجة الكفار في تهمة الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالسحر أن الرسالة والقرآن تكون في رجل عظيم – وأنهم بعقلهم القاصر، ومعتقدهم الفاسد – يعتقدون أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– غير عظيم، وبالتالي ما جاء به سحر:

القرآن ينزل على رجل عظيم ← محمد –صلى الله عليه وسلم– غير عظيم ← القرآن الذي جاء به سحر .

وكان الاحتجاج عليهم في دحض حجتهم بوصف القرآن الكريم بـ (الحق) "ولما جاءهم الحق الذي يوجب على من أدنى له دين ومعقول أن يقبله، وينقاد له قالوا: هذا سحر وإنا به كافرون: وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة"[2]، والاستفهام في قوله تعالى: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}** للإنكار، فهو إنكار دال على التعجب من اعتراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة[3]، وقد جاء توظيف الاستفهام الإنكاري في هذا السياق لإقامة الحجة عليهم، ووضعهم وضع الملزم بالإجابة مما يستدعي منهم التفكير ومراجعة عقولهم، فالاستفهام الإنكاري في هذا الموضع أبلغ من استخدام النفي، لأن النفي يشعر بوجود الاختلاف فقط بين وجهات النظر بين طرفي الخطاب، وينتهي هذا الاختلاف بمجرد تصديق المخاطب، أما الاستفهام الإنكاري فإن المخاطب من خلال الإجابة عليه فإنه يسير في الاتجاه الذي يحدده المتكلم، ويُجبر المخاطب في الانخراط في المسار

---

(١) المحرر الوجيز: ٥٢/٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٧٦٤.

(٣) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين بن محمد البغدادي المعروف بالخازن، تصحيح:محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ٤/ ١٠٨.

الحجاجي الذي رُسم له، وقد دخلت همزة الاستفهام على الضمير المسند إليه (أهم) وتسلط الإنكار على الضمير إبطالا وتخطئة لهم في حكمهم[١].

وجاء الدليل القاطع على بطلان معتقدهم الفاسد الذي لا يفرقون فيه بين حاجة الجسد، وحاجة الروح، فمقياس العظمة لديهم المال والعتاد، وهذا باطل، بدليل عجزهم عن إدارة شؤون حياتهم، فالله –سبحانه– هو مدبر الكون ومقسم الأرزاق، ففاوت بين المعايش، ولو وكلهم إلى أنفسهم لضاعوا وهلكوا[٢]"، وهذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيء"[٣].

ومرادهم بالقريتين: مكة والطائف، والرجلان: الوليد بن المغيرة من مكة وابن مسعود الثقفي من الطائف[٤]، فجاء الرد على حجتهم، ودحضها بقوله:" **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}** معناه: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، وفيه الإنكار الدال على تجهيلهم، والتعجب من اعتراضهم، وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، ثم ضرب لهذا مثالا فقال: **{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** ".[٥] وللأمثال أثرها وتأثيرها في مقام الحجج، ففيها توضيح وبيان، كما تتضمن بيان الحقائق، وكشف كذبهم وأباطيلهم، ومخاطبة لعقولهم إن كان لهم عقول فلعهم يتبينون ويبصرون؛ ليعلموا كذب دعواهم، وزيف افتراءاتهم في كون القرآن سحرا.

---

(١) انظر: حجاجية الاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم – مناظرة سيدنا إبراهيم لقومه نموذجا، د. كمال الزماني، ص٦، والتحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٠٠.

(٢) انظر: الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.٤/ ٢٤٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٧٦٤.

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/٥٩٤.

(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد الشيحي المعروف بالخازن، ت:محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥، ٤/١٠٨.

وفي قوله: **{رَحْمَتَ رَبِّكَ}** الإشارة إلى إرسال الرسول –عليه الصلاة والسلام، فهو في حقيقته الرحمة المهداة، أرسله الله لهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد رحمهم الله به، فكيف يجعلون هذه الرحمة سحرا مبينا ؟!

ولذا فإن ذكر أوصاف القرآن، وذكر أوصاف الرسول – عليه الصلاة والسلام– دلالة مهمة في مقام الحجاج، وفي الرد عليهم، فقد وصف –سبحانه– القرآن بأنه حق **{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ}** كما ذكر عن الرسول – عليه الصلاة والسلام – بأنه رحمة **{رَحْمَتَ رَبِّكَ}** ولذا فإن في ذكر هذه الأوصاف ردا على اتهاماتهم الباطلة، فهي تجتث إنكارهم من أصوله، ففي بيان الحقائق رد للتهم والأقاويل الكاذبة.

الموضع السابع: قوله تعالى **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)}** الأحقاف [٧-٩].

سبب نزول هذه الآيات كما يذكر الإمام الرازي: " أن هذا كلام كفار مكة، قالوا : إن عامة من يتبع محمدا الفقراء والأراذل، مثل: عمار وصهيب وابن مسعود، ولو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء "[(١)]، فقد نفوا الخيرية عن القرآن الكريم، ولم يكتفوا بذلك، بل ادعوا أنه كذب قديم[(٢)]، **{فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}** وهذه حجتهم الثالثة (القرآن كذب قديم)، فهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزا وصفوه بالكذب " أي لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن، ولا بمن جاء به عادوه

(١) مفاتيح الغيب: ١١/٢٦.

(٢) انظر : فتح البيان للقنوجي: ١١٥/٢٥.

ونسبوه إلى الكذب، وقالوا: هذا إفك قديم "[1]. فقد جاء التدرج في إنكار القرآن الكريم، حيث جعلوه سحرا، ثم جعلوه مفترى مكذوبا من الرسول –صلى الله عليه وسلم :

القرآن سحر ← القرآن مفترى ← إنكار القرآن وتكذيب الرسول – صلى الله عليه وسلم– .

وهذا من فساد عقولهم، وضلال عقائدهم، وقلب الحقائق، وقد ساقوا حججهم في إنكار القرآن الكريم ووصفه بالسحر وأنه مفترى من الرسول – عليه الصلاة والسلام، ووصفهم بأن القرآن سحر مبين، أي أنه ظاهر السحر لا شك فيه ولا شبهة[2]، فكان وصف الآيات بـ (البينات) ووصف الرسول –صلى الله عليه وسلم– بـ (المبين) دحضا لحججهم، فالآيات بينات لا شك فيه ولا امتراء، بينة جلية، متضمنة الحقائق، فقد جاءت بفلاحهم في الدنيا والآخرة.

تتبين المفارقة التامة بين فعل الشرط وجزائه في قوله – تعالى: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)}** أما فعل الشرط فهو قوله: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ}**، فالآيات تتلى عليهم، وتطرق مسامعهم صباحا ومساء، تلاوة متجددة مستمرة، ثم إن تلك الآيات بينات، ولهذا الوصف دلالته المهمة في دحض حجتهم أن تكون سحرا، وهذا كله" مسوق مساق العد لوجوه فرط ضلالهم؛ فإن آيات الله القران تتلى عليهم صباح مساء، تبين لهم دلائل الحق فلا يتدبرونها فيغالطون أنفسهم بأن ما فهموه منها تأثر

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ت: عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت ط١، ٢٠٠٥، ٨/ ٣٦٥.

(٢) انظر البحر المحيط: ٩/ ٤٣٣.

سحري، وأنها سحر، ولم يكتفوا بذلك، بل زادوا بهتانا فزعموا أنه مبين أي واضح كونه سحرا، وهذا انتقال إلى إبطال ضلال آخر وهو التكذيب بالقرآن".[١]

فهي بينة وحجة واضحة، خالية من الغموض والخفاء، لا يمتري في حقيقتها أحد، ولا يشك في أمرها شاك، فقد أدركوا حقيقتها وكنهها، وقامت عليهم الحجة، فلا عذر لهم في زعمهم أنها سحر، لكونها واضحات بينات، ومع ذلك ومن فرط "عنادهم وظلمهم أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه".[٢]

ومع ذلك يأتي جواب الشرط في بيان موقفهم من تلك الآيات البيات في قوله: **{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** ولم يكتفوا برميه بالسحر، بل وصفوه بالمبين كذبا وبهتانا، دلالة على أنه سحر بين ظاهر لا شك فيه ولا امتراء، وهذا من باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاءهم به الرسول وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق الذي علا وارتفع ارتفاعا على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة بالباطل الذي هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم، خبيث النفس، خبيث العمل، فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟ ".[٣]

وقد يعجب المرء من موقف المشركين من القرآن، كيف يزعمون أنه سحر مبين؟، ولكن يزول العجب حين يعرف السبب، فليس القرآن كما ذكر المشركون، ولا كما يقولون سحرًا مبينًا، وليس ذلك راجعا للقرآن، وما جاء فيه، وما تضمنه من أحكام وأخبار، بل ذلك راجع لسوء طويتهم، ولحقيقة نفوسهم، ولذا جاء

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣/٢٦.

(٢) الكشاف: ٢٩٦/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٧٩/١.

الإظهار في قوله: **{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ}** ؛لكشف هذه الحقيقة، وإبرازها في هذا المقام، ولذا كان لهذا الأسلوب الأثر البالغ في تحقيق غرض الحجاج في هذه الآيات، وفي بيان حقيقة القرآن، فلو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: قالوا، ولكن جاء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ويتجلى السر البلاغي في اللفظه المظهر في هذا المقام، وهي الذي كفروا، فصفتهم الكفر، والباعث لهم في موقفهم من القرآن هو الكفر أيضا، فلأنهم كافرون قالوا عن القرآن سحر مبين، وهو في حقيقته حقائق وقرآن مبين.

وثمة إظهار آخر وحقه الإضمار وهو قوله (للحق)، فحقه الإضمار إذا سبق ذكره، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: (لها)؛ فهي الآيات البينات المذكورة في صدر الآية، وفي بيان أنها حق إبطال ورد أن تكون سحرا مبينا، ولأبي حيان الأندلسي كلام نفيس في بلاغة الإظهار هنا، يقول: "وأتى بالظاهرين بدل المضمرين في **{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ}** ولم يأت بالتركيب: قالوا لها؛ تنبيها على الوصفين: وصف المتلو عليهم بالكفر، ووصف المتلو عليهم بالحق، وإن كان من سمى الآيات سحرا هو كافر، والآيات في نفسها حق؛ لما جاءهم تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر؛ عنادا وظلما، ووصفوه بمبين أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه".(١)

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)} وقد جاء قوله: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}** إضراب عن افترائهم الأول، وهو أن القرآن سحر مبين، وكأنهم أدركوا ضعفها وتهافتها، وعدم قبولها، فلن تنطلي على سفهائهم فضلا عن عقلائهم، ولذا فالإضراب والانتقال يشيران

(١) البحر المحيط: ٤٣٣/٩.

إلى علاقة ما بعده بما جاء قبله، فالمعنى دع قولهم عن القرآن سحر مبين، واستمع لما هو أبعد منه وأعجب وهو أنك افتريت القرآن من عند نفسك، ولم يكن منزلا من عند رب العالمين(١)، ففي هذا الإضراب دلالة على عدم قناعة المشركين من مواقفهم ضد القرآن، وعلى عدم قناعتهم أنه سحر مبين فهو " عدول عن هذا القول إلى قول آخر، إذ لم يطمئنوا إلى هذا القول في القرآن فهو آيات بينة المعنى، واضحة القصد، وكلمات محددة الدلالة صريحة المعنى، فمن أين يكون بينها وبين السحر جامعة تجمعها به، والعهد بالسحر أنه خفايا وأسرار تطلع من وراء ستر محجبة، لا يعرف الطريق إليها إلا أصحابها الذين يخيلون للناس منها ما يخيلون، فالقول بأن هذا القرآن مفترى على الله أقرب إلى القبول في باب الجدل والمراء من القول بأنه سحر".(٢)

وقد جاء ما بعدها ردا على هذه الفرية في قوله: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)}** والمعنى كما يذكر الإمام السعدي: "قل لهم إن افتريته فالله عليّ قادر، وبما تفيضون فيه عالم فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟! **{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}**: أي لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم فلأي شيء تنكرون رسالتي؟ **{وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}** ".(٣)

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٤.

(٢) التفسير للقرآن: ٢٦٦/١٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٧٧٩.

وقد جاء بيان حقيقته عليه السلام بقوله: **{وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}** ولهذه الجملة دلالتها وأثرها البالغ في تحقيق غرض الحجاج، فقد جاءت في مقابلة قولهم: **{هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** فليس القرآن سحرا، ولا الرسول ساحرا، إنما هو نذير مبين، وفي ذكر النذارة هنا دون البشارة دلالة على أنهم بحاجة إلى من يخوفهم ويذكرهم، ويبين لهم ما هم فيه من الافتراء والضلال بسبب مواقهم من الرسول ومن القرآن، دلالة على أنه تقولهم على الرسول بأنه ساحر مبين من المهلكات التي قد تؤول بهم إلى العذاب الأليم، ولذا كان الرسول لهم نذيرا مبينا، وشتان شتان بين قولهم سحر مبين، وبين قوله: **{نَذِيرٌ مُبِينٌ}**، وفي ذكر هذه الحقيقة بأسلوب القصر رد ومحاجة لهم، وقطع لكل مقولاتهم وافتراءاتهم، فهذه هي حقيقته، وفي ذكرها بطريق (إنما) دون سواها من طرق القصر؛ دلالة على أنها حقيقة مقررة مسلم بها، لا تقبل شكا ولا نزاعا، وفي ذلك رد بليغ على قولهم سحر مبين، وقطع لأقوالهم، ودحض لافتراءاتهم، وبيان للحق وللحقيقة، ومن هنا تبزر بلاغة القصر في هذا المقام، وأثره في تحقيق غرض الحجاج مع المشركين الزاعمين أن القرآن سحر مبين.

الموضع الثامن: قوله تعالى: **{ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) }** القمر [٢-٥].

وصف الكفار القرآن بأنه **{سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}**، وذهب المفسرون إلى عدة وجوه في معنى (مستمر) منها: إما أن يكون (مستمر) بمعنى دائم لا ينقطع(١)، وإما أن يكون متصلا يشبه بعضه بعضا(٢)، وقد يكون المعنى قويا، أو

(١) تفسير البحر المحيط: ٣٣/١٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٤/ ٦٣٤.

ذاهبا[١]، أو يكون بمعنى: منفورا منه لشدته[٢]، والأقرب أن معناها في هذا السياق الدائم الذي لا ينقطع – والله أعلم – بقرينة تنكير (آية) حيث جاء التنكير للتعظيم، فالمعجزات التي جاء بها الرسول –صلى الله عليه وسلم –كثيرة وعظيمة، ومع ذلك ظل الكفار على عنادهم ومكابرتهم، وصفة العناد مستمرة في الكفار، لذلك جاء التعبير بلفظ المضارع الدال على الاستمرار التجددي في قوله: (يروا – يعرضوا – يقولوا) " لينتظم مع ما مضى، وما يأتي فهو إخبار بأن حالهم هكذا "[٣]، والتعبير بالفعل الماضي (كذبوا – واتبعوا) للدلالة على أن التكذيب واتباع الهوى ديدنهم وحالهم، فحالهم في المستقبل كحالهم في الماضي، والتعبير بالرؤية دون السماع، مع أن آيات الله تتلى عليهم " إشارة إلى أنها من الوضوح والبيان؛ بحيث تبدو كأنها حاضر شاخصا حديث يسمع "[٤].

ولا يخفى أن قولهم سحر مستمر "من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارا منهم لهذه الآية وحدها، بكل كل آية تأتيهم فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل، والرد لها، ولهذا قال: (وإن يروا آية يعرضوا) ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: (وإن يروها) بل قال: (وإن يروا آية) يعرضوا وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) ".[٥]

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط٢: ١٤٠٧هـ. ٧١/ ٤٢٦ ومحاسن التأويل، محمد جمال الدين بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١: ١٤١٨هـ٨٧/٩.

(٢) انظر : محاسن التأويل: ٩/ ٨٧.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٢١٢.

(٤) التفسير القرآني للقرآن: ١٤/ ٦٣٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٨٢٣/١.

فهذا موقفهم من القرآن: أنه سحر مستمر، وقد جاء الرد عليهم، ومحاجتهم بقوله: **{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)}** فحين يكون خصمك كاذبا فلن تجدي معه البراهين، ولن يقتنع بما تقدمه له من الأدلة، فهو لا يتحرى الحقيقة، ولا يبحث عنها، ومن الصعوبة بمكان محاورة الكاذب، ومجادلته، وأبلغ حوار هو الإعراض عنه، وبيان كذبه، وما توافر فيه من الخصومة والفجور، وقد جاء الحجاج في هذا المقام في هذا الاتجاه، فلم يبين لهم حقيقة القرآن وأنه ليس سحرا، بل ذهب في وصف أولئك الأقوام، وبيان ما انطوت عليه قلوبهم من الكذب والحقد، فما ترجو من قوم مكذبين متبعين لأهوائهم، فهم يتبعون أهواءهم، ولا يتبعون الحق، ولا ينشدون الحقيقة، والمعنى أنهم " كذبوا واتبعوا شهواتهم، وما يهوون من الأمور لا بدليل ولا بتثبت".[١]

كما جاء قوله: **{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ}** امتدادا للرد عليهم، وبيان زيف دعواهم، وبطلان قولهم إن القرآن سحر، كيف وقد جاءتهم أخبار الأمم السابقة التي كذبت وأعرضت؟! وعليهم أن يأخذوا العظة والعبرة من هلاكهم، لا أن يسيروا على خطاهم، والمعنى: "مافيه مزدجر: جاءهم من الأنباء عن القرون الخالية والحقائق الكونية مما يستحيل أن يأتي به أمي غيره –عليه السلام– ما فيه مزدجر أي مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو".[٢]

وللفظة (مزدجر) بظلها ودلالتها على الوعيد والتخويف أثر بالغ في هذا الحجاج، والإشارة إلى أن الأنباء التي وصلتهم من ربهم كفيلة أن تردعهم، وأن تزجرهم، وأن تكون باعثا لهم إلى الإيمان والتصديق، وأن يتركوا الكفر والتكذيب

(١) المحرر الوجيز: ٢١٢/٥.

(٢) محاسن التأويل: ٨٩/٩ .

بالقرآن وبالرسول، كيف وهي حكمة بالغة؟ ووصفها بالبالغة؛ " لتقوم حجته على المخالفين ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل "[1]، فالحكمة بلغت غايتها من الإتقان والإحكام، وجملة (حكمة بالغة) مستأنفة الغرض منها: التعجب من حالهم، وإنكار مواقفهم من القرآن الكريم، كيف يقولون عنه سحر مبين، وسحر مستمر، وهو حكمة بالغة، وفي لفظة (بالغة) دلالة على أنها "بلغت غايتها من الإحكام، والتنزه عن الخلل، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة، والحجج الساطعة ".[2]

الموضع التاسع: قوله تعالى : **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}** المدثر [١١-٣٠].

سبب نزول هذه الآيات كما يذكر الإمام الطبري: " أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال: لمَ؟ قال: يعطونكه فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قِبَله، قال: لقد علمت قريش أني أكثرها مالا، فقال: قل فيه قولا؛ يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له قال: فما أقول فيه؟! فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، قال: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٨٢٣.

(٢) محاسن التأويل: ٨٩/٩.

أفكر فيه فلما فكر، قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت (ذرني ومن خلقت وحيدا حتى بلغ تسعة عشر) " .[1]

إذن فقد نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، حين سمع القرآن رق قلبه، إلا أنه عاند وجحد وأدبر واستكبر ثم ذكر عن القرآن الكريم أنه سحر يؤثر، وقد بدأت هذه الآيات بقوله – سبحانه: (ذرني) (جعلت) (مهدت) المتكلم الله – جل في علاه–، أسندت الأفعال إلى لفظ الجلالة، والنفي بـ (كلا) وما تحمله من دلالة الزجر، والتعبير بالمضارع المقترن بالسين الدالة على الاستقبال، فيه تهديد ووعيد .

وحجته التي ساقها هو تأثير القرآن الكريم في المتلقين:

القرآن كلام يؤثر في المخاطبين ← القرآن سحر.

يتجلى الحجاج في هذه الآيات في بيان موقف الوليد من القرآن الكريم، وفي حكمه عليه أنه سحر يؤثر، وفي طريقة رد القرآن عليه، ورد دعواه، ورد طعنه في القرآن الكريم، يبدأ ذلك في وصفه وصفا دقيقا قبل أن يقول قوله ويصدر حكمه في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: **{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)}** .

وهل يحتاج الأمر إلى كل هذا حتى يصل إلى مبتغاه، وحتى يحكم على القرآن، ويبين طبيعته، كيف وهو آيات بينات، لا يخفى أمرها، كيف وهو أعرف الناس بها، وهو العربي الخالص، كيف وهو أعرف الناس بالشعر برجزه وقصيده كما ذكر ذلك عن نفسه.

وقد ذكر الطاهر بن عاشور دلالة ذكر هذه الأوصاف، وربطها بكذبه، فلم يكن كذبه وافتراؤه على القرآن يسيرا، يقول: "وقد وصف حاله في تردده وتأمله بأبلغ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٩/٢٣.

وصف، فابتدئ بذكر تفكيره في الرأي الذي سيصدر عنه وتقديره، ومعنى فكر أعمل فكره، وكرر نظره؛ ليبتكر عذرا يموهه ويروجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام رب العالمين؛ ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي أُوحي إلى النبي – عليه الصلاة والسلام –... وصفت أشكاله لما أجهد نفسه لاستنباط ما يصف به القرآن؛ وذلك تهكم بالوليد ".[١]

كان في غنى عن هذا كله لو صدق مع نفسه، وتركها على سجيتها لتقول الحق في حكمها على القرآن الكريم، ولكن لما خالف ظاهره باطنه، وتقوّل شيئا هو أول المكذبين به لما كان هذا حاله لم يكن يسيرا عليه أن يقول في القرآن ما ليس منه، فاستدعى ذلك كله هذه الصفات، وهذه الأحوال، فاقتضى ذلك منه أن يفكر ويفكر، وأن يقبل ويدبر، وأن ينظر ثم ينظر، فعبس وبسر.

فيكفي في ذكر هذه الأوصاف، وفي ذكر حالته النفسية، وفي ذكر ملامح وجه سببا لرد دعواه، وبطلان قوله في القرآن أنه سحر يؤثر، وإلا فلماذا كان منه هذا التجهم والعبوس والإقبال والإدبار، فقد قاده كذبه هذا في القرآن أن ينظر " في وجوه الحاضرين يستخرج آراءهم في انتحال ما يصفون به القران".[٢] ولم يكن عليه هذا الأمر يسيرا ولذا عبس، والمعنى أنه " قطب وجهه لما استعصى عليه ما يصف به القرآن ولم يجد مغمزا مقبولا"".[٣] ولم يقف حاله عند هذا العبوس، فضاق عليه الأمر فبسر، والمعنى: " كلح وجه وتغير لونه خوفا وكمدا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا ترده العقول"[٤]، ثم عاد بعد ذلك إلى

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٧/٢٩ بتصرف.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٧/٢٩.

(٣) المرجع السابق: ٣٠٧/٢٩.

(٤) المرجع السابق: ٣٠٧/٢٩.

كفره وتكذيبه بالقرآن الكريم "فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى".(١)

ومن هنا يتبين ارتباط هذه الأوصاف بتحقيق غرض الحجاج، ففي ذكر أوصافه المصاحبة له في زعمه أن القرآن سحر يؤثر من أسباب رد قوله، وبطلان دعواه، فهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا القرآن ليس سحرا، وأنه كلام رب العالمين، أنزله على من أرسله ربه للناس بشيرا ونذيرا، وحسبك بهذا ردا وحجاجا، فذلك كله "يدل على أنه كان عارفا في قلبه صدق النبي إلا أنه كان يكفر به عنادا، ويدل عليه وجوه: أنه بعد أن تفكر وتأمل قدر في نفسه كلاما عزم على أنه يظهره ظهرت العبوسة في وجهه، ولو كان معتقدا صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة، إلا إنه لشدة عناده ما كان يجد شبهة أجود من تلك الشبهة؛ فلهذا السبب ظهرت العبوسة في وجهه، لأنه يعلم أن الذي يقوله كذب وبهتان ".(٢)

وبعد هذا كله يقول حكمه في القرآن فيزعم أنه سحر، وذلك في قوله: **{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)}** والمعنى أن القرآن: "سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله، ويحكيه عنهم، ولهذا قال: إن هذا إلا قول البشر، أي ليس بكلام الله. (٣)

ولكي تنطلي مزاعمه على البسطاء والدهماء ذكر هذه الفرية بأسلوب القصر، ولم يكتف بهذا، فوصف السحر بأنه يؤثر، وكأن هذا القرآن سحر من نوع آخر، غير ما يعرفه الناس، وغير ما عهدوه، وللقصر هنا بلاغة ودلالة على ما يريد تقريره؛ فأسلوب القصر هنا وطريقته "مشعرة بأن استقراء أحوال القرآن بعد السبر

(١) التحرير التنوير: ٣٠٧/٢٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ٧٠٦/٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢٧٥/٨.

والتقسيم أنتج له أنه من قبيل السحر، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التي جالت في نفسه؛ لأنه قال ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون كما تقدم، ووصف السحر بأنه مأثور أي مروي عن الأقدمين، يقول هذا؛ ليدفع به اعتراضا يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن، ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة ".[1]

يقول هذا عن القرآن وهو أول المكذبين بذلك، غير مقتنع بما يقول، ولا يقبل به، ولكنه الكفر والعناد، كيف وقد قال عن القرآن إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وصدق الله **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}** [النمل ١٤].

فقد قال ما قال كفرا وعنادا، لا قناعة واعتقاد.[2]

ولذا لم يتعرض القرآن إلى كلامه، ولم يرد على دعواه، ولم يبين زيف افترائه في القرآن، بل اكتفى في بيان عقابه الذي ينتظره في الآخرة جزاء موقفه هذا، وجزاء افترائه على القرآن، وزعمه أنه سحر يؤثر في قوله: **{سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}** وهذا سبيل ناجع وناجح في المحاجة والحجاج، فمن الرد عدم الرد، والسكوت موقف، والفرية ظاهر بطلانها، وهم في قرارة نفوسهم يقرون بصدق القرآن، ويعلمون علم اليقين أنه كلام رب العالمين.

**

(١) التحرير والتنوير: ٣١٠/٢٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ٧٠٧/٣٠.

المبحث الثاني

بلاغة الحجاج القرآني في نفي السحر عن الرسول ﷺ :

سأتناول في هذا المبحث الآيات التي ورد فيها نفي أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ساحرا أو مسحورا، وبيان ما تضمنته من حجاج تكشف زيف تلك الدعوى، وبيان الأساليب البلاغية التي حققت هذا الحجاج، وكيف كانت وسيلة ناجعة في نفي السحر عن الرسول ﷺ ساحرا أو مسحورا، ودحض افتراءات المشركين، ومزاعمهم الباطلة.

المطلب الأول: نفي أن يكون الرسول ﷺ ساحرا :

جاء ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، سأذكرها على حسب ورودها في القرآن الكريم؛ لبيان خصائص الحجاج في القرآن الكريم؛ في دحض هذا الافتراء الكاذب.

الموضع الأول : قوله تعالى: **{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)}** يونس [٢، ٣].

جاءت الآية في سياق الحديث عن الكافرين المكذبين للرسول – صلى الله عليه وسلم– مع يقينهم التام بصدقه، فهو الصادق الأمين، نشأ بين ظهرانيهم، وكان سبب نزول هذه الآية ما روي عن أهل مكة، قالوا: لم يجد الله رسولا إلا يتيم أبي طالب ! فنزلت[1].

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، دار الفكر، بيروت، ط: د ، ٤/ ٦ .

وقد كانت حجتهم في اتهام القرآن الكريم بالسحر:

الرسول لا يكون من جنسهم ← محمد رجل منهم ← محمد ليس نبيا، بل ساحر.

وقد أدى الاستفهام التعجبي **{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا}** دلالته الحجاجية في التأكيد على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– من جنسهم، ولا عجب في ذلك، فهي عادة الله في الأمم السابقة، فدحض القرآن حجتهم:

جميع الأنبياء بشر ← محمد صلى الله عليه وسلم بشر ← محمد صلى الله عليه وسلم نبي وليس ساحرا.

كما أن وصفهم للرسول –صلى الله عليه وسلم– بالساحر، حجة عليهم، فما جاء به –عليه الصلاة والسلام– يفوق القدرة البشرية، وهذا دليل بيّن على أنه وحي يوحى، فكان تعجبهم حجة عليهم، " أكان للناس عجبا: العجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة "(١).

وجاء التوكيد **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ}** وإضافة الرب إلى ضمير المخاطب، وتكرير **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ}** تأكيد على ربوبية الله وقدرته، فهو سبحانه **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}** بما تقتضيه حكمته الإلهية، فلا عجب أن تكون الرسالة في محمد –صلى الله عليه وسلم– وهم يعلمون شرف نسبه وخُلقه، ويلقبونه بالصادق الأمين، فإنكارهم له وتعجبهم باطل، خاصة في ظل عقائدهم الفاسدة وعبادتهم للأصنام.

وزعمهم أنه –عليه الصلاة والسلام– ساحر إنما هي حيلة العاجز، وضعف الجبان؛ إشارة منهم" أنه فرق كلمتهم، وحال بين القريب وقريبه، فأشبه ذلك بما يفعله الساحر، وظنوه من ذلك الباب... وهذا دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرا ".(٢)

---

(١) معالم التنزيل: ٤/ ١٢٠.

(٢) البحر المحيط: ١١/٦.

وما أبعده عليه السلام من أن يكون ساحرا، وهو الصادق الأمين، وهو الرسول المرسل، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، ولأن قولهم هذا ظاهر البطلان فلم يحتج معه إلى رده، وبيان ضعفه وتهافته، ولذلك كله "لم يحتج قولهم إلى جواب لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة وخلطتهم له، وما كانت قلة علم ثم أتى به من الوحي المتضمن ما لم يتضمنه كتاب إلهي من قصص الأولين والأخبار بالغيوب والاشتمال على مصالح الدنيا والآخرة، مع الفصاحة والبراعة التي أعجزتهم إلى غير ذلك من المعاني التي تضمنها يقضي بفساد مقالتهم، وذلك هو ديدن الكفرة مع أنبيائهم إذا أتوهم بالمعجزات فرموهم بالسحر، ودعوى السحر إنما هي على سبيل العناد والجحد" .[1]

وقوله –سبحانه: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** هو رد مفحم مخرس على قولهم: **{إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}**، فصميم الدعوة التي يدعوهم إليها الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ عبادة الأصنام، وتصحيح عقائدهم الفاسدة، واتخاذ الله – سبحانه – ربا متفردا بالربوبية وحده لا شريك له[2]، فهو –سبحانه– خالقهم، وخالق السموات والأرض، وهي أعظم من خلقهم، لذلك ختمت الآية بالاستفهام التوبيخي **{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}**للدلالة على بطلان تعجبهم.

الموضع الثاني: قوله تعالى: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)}** سورة ص [٢–٥].

(١) المرجع السابق: ١١/٦ .

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن: ١٢/ ١٤٨.

يذكر – سبحانه– في هذه الآيات نوعا من استكبار المشركين، وعنادهم للرسول – عليه الصلاة والسلام، وتعجبهم من مجيء منذرهم منهم، ووصفوه بالساحر الكذاب، وحجتهم في ذلك:

الرسول لا يكون من جنسهم ← محمد من جنسهم ← محمد ساحر كذاب.

فاتهام الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالسحر والكذب باعتمادهم على سماعهم عن آبائهم بأن الآلهة لا تكون إلها واحدا، وأن هذا القول كذب واختلاق من محمد –صلى الله عليه وسلم– **{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ}**، فجاء الرد على حجتهم بذكر هلاك الأمم السابقة **{كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ}**، و(كم) هنا خبرية لا تحتاج إلى جواب، بمعنى: أمم كثيرة؛ لأن المعنى أن هؤلاء الكفار سيجازون على شقاقهم كما جوزيت أمم كثيرة من قبلهم، وأن عليهم الحذر من ذلك، وفي هذا معنى التهديد والوعيد لهم " كم أهلكنا من قبلهم من قرن: وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين "[1].

وفي بيان أوصاف هؤلاء المشركين في قوله: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}** دلالة مهمة في موضوع الحجاج في هذه الآيات، وعلاقة وثيقة في اتهامهم رسول الله بأنه ساحر كذاب، فكأن هذه التهمة الباطلة، والفرية العظيمة سبب لما توافر فيهم من صفات الكفر والعناد، والمعنى أنهم في "عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له أي مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله وفي القدح بمن جاء به". [2]

وفي حرف الجر (في) استعارة تبعية بدلالته على الظرفية، وفيه دلالة أن هذه العزة، وذلك الشقاق قد أحاط بهم من جميع جوانبهم، إحاطة السوار بالمعصم،

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٧/ ٢١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٠٩/١.

والظرف بمظروفه، فقد شبوا على الشقاق، "إشارة إلى أن هذه العزة الكاذبة مستولية على أهلها، مغطية على أبصارهم فلا يرون على صفحة مرآتها إلا أنفسهم في هذا الثوب الزائف الذي لبسوه"[١]، فلا غرو – وهذه حالتهم – أن يزعموا ويفتروا في رسول الله هذه الفرية العظيمة، ويتهموه أنه ساحر كذاب.

وفي قوله –تعالى **{وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}** إظهار في موضع الإضمار بذكر(الكافرين)، ولم يقل :قالوا، إظهارا للتعجب، والدلالة على أن هذا الوصف للرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يصدر إلا عن كفر تام[٢].

ولهذا الإظهار أثره ودلالاته في تحقيق الحجاج في هذه الآيات، وأثر وثيق في بيان اتهام المشركين للرسول –عليه الصلاة والسلام – بأنه ساحر كذاب، كما أن فيه تبرئة له من هذه التهمة الباطلة، فلولا كفرهم لما قالوا ما قالوا، ففي هذا الإظهار بيان لسبب قولهم، وبيان لمصدر هذا القول وباعثه، ومن هنا جاء الإظهار في هذا المقام ليدل على هذه المعاني كلها، وإلا فإن "مقتضى الظاهر أن يقال: وقالوا هذا ساحر، وهذا لقصد وصفهم بأنهم كافرون بربهم، مقابلة لما وصموا به النبي فوُصفوا بما هو شتم لهم يجمع ضروبا من الشتم تأصيلا وتقريعا، وهو الكفر الذي هو جماع فساد التفكير، وفاسد الأعمال". [٣]

ومن دلالات هذا الإظهار وبلاغته، أن فيه "إظهارا للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغيّ، وهل ترى كفرا أعظم جهلا من أن يسموا من صدّقه الله بوحيه كاذبا، ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولا يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذي لا وجه لصحته". [٤]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٠٤٨/١٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٣٦٧.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٠٩/٢٣ .
(٤) الكشاف: ٧٢/٤ .

ولهذا الإظهار بهذه الدلالة أثر في الرد على زعمهم أن الرسول ساحر كذاب، فقد افتروا فرية عظيمة كانوا بها كافرين، ولذا استحقوا الغضب والمقت من رب العالمين، وفي هذا دحض لفريتهم، وحجاج مفحم، ورد بالغ بليغ.

ووصفهم للرسول – صلى الله عليه وسلم– بأنه ساحر كذاب حجة عليهم، ففيه إشارة إلى أن ما أتى به معجزة خارقة للعادة لا تصدر عن بشر، فهو قول يجذب القلوب ويؤثّر في السامعين، فكان أقرب ما يقدحون به فيه (السحر) فوصفوه بالساحر(١).

ولا يخفى أن قولهم: (ساحر كذاب) دلالة بالغة " على كمال جهالتهم؛ وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد والترغيب في الآخرة، والتنفير من الدنيا، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا من الكذب والتهمة، وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ... وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد"(٢)، والتعبير باسم الإشارة (هذا) فيه معنى التحقير والتهكم والتكذيب بالرسول – صلى الله عليه وسلم(٣).

كما أدى الاستفهام وظيفة حجاجية في قوله –تعالى– على لسان الكافرين: **{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا}** فالاستفهام هنا لا يتعلق بالفهم والاستخبار، لكن قد يراد به حجة يمليها المقام الناشئ عن الاستفهام، وبذلك يتم توجيه دفّة الحوار نحو الوجهة التي يريدها المتكلم، فيكون الاستفهام الحجاجي بذلك مسهما في إنتاج الحجج وصناعتها(٤).

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢ ١٤١٣هـ. ٣٢٨/١٦.

(٢) مفاتيح الغيب: ٣٦٧/٢٦ بتصرف.

(٣)انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٣/ ٢٠٩.

(٤) انظر: الحجاج في الحديث النبوي د. آمال المغامسي، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٦، ص ٢٥٤.

وتكرار لفظ التعجب بصيغ مختلفة في قوله : (عجبوا) و قوله (عجاب) لأن المقام هنا التعجب من حال الكافرين في اتهام الرسول – صلى الله عليه وسلم– بهذه التهم الباطلة .

الموضع الثالث: قوله تعالى: **{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)}** الذاريات [٥٢-٥٥].

في هذه الآية بيان لحال المشركين المكذبين، وفي هذه الآية تسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم– بأن التكذيب والعناد صفة متأصلة في نفوس الكافرين، وأن هذا ديدنهم مع أنبيائهم، وكأن أولهم أوصى آخرهم بالتكذيب، وتواطوا عليه[١].

يقول الله –تعالى– مسليا لنبيه – عليه الصلاة والسلام: وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم، أتواصوا به؟ أي أوصى بعضهم بعضها بهذه المقالة، بل هم قوم طاغون أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، (فتول عنهم) أي فأعرض عنهم يا محمد فما أنت بملوم، يعني فما نلومك على ذلك، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة.[٢]

ولهذه التسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أثر مهم في موضوع الحجاج، وفي زعمهم أنه ساحر كذاب، فذلك هو دأب المشركين مع أنبيائهم، ولست أنت يا محمد بدعا من الأمر، فما أنت بساحر ولا كذاب، لكنهم هم الطاغون، ويسيرون على خُطى من سبقهم من الأمم المكذبة لأنبيائها، فتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

---

(١) انظر: معالم التنزيل: ٧/ ٣٨٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٩٦/٧.

والإضراب بـ (بل) في قوله : **{بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}** للترقي؛ لأن الطغيان أقبح وأشنع من التواصي، للدلالة على أنهم لم يتواصوا بذلك لأنهم لم يتلاقوا، ولكن اشتركوا في صفة واحدة وهي (الطغيان)[1]، مما أدى بهم إلى اتهام جميع الرسل بالسحر أو الجنون، وفي ذلك تسلية للرسول –صلى الله عليه وسلم – والله أعلم.

والقصر بالنفي والاستثناء في قوله **{مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}** أدى وظيفة دلالية في التأكيد على الحالة العجيبة من البهتان[2]، إذ يرمون الرسول – صلى الله عليه وسلم– بالسحر والجنون وهم أعرف الناس بصدقه، وأمانته ورجاحة عقله، فكيف إذن يتهمونه بالسحر والجنون؟!.

ولإثارة انتباه المتلقي للتأمل في حالهم العجيبة جاء الاستفهام التعجبي(أتواصوا به) فالاستفهام هنا لا يراد به الاستخبار، إنما يراد به التعجب من حالهم.

وفي هذا الاستفهام بدلالته على التعجب والإنكار بيان لسبب مقولتهم إنه ساحر، فكأن أولئك الأقوام أوصى بعضهم بعضا، ومن هنا جاء هذا الاستفهام بهذه الدلالة ليحقق غرض الحجاج، وليرد على مزاعمهم، ببيان أصلها، وسبب القول بها، ومن هنا جاء التعجب من قول كل أمة كافرة لنبيها ساحر، فجاء الاستفهام ليدل على هذا المعنى ويؤكده، فهل تواصوا بذلك وتعاهدوا عليه، "وهو قولهم ساحر أو مجنون، ومعناه التعجيب أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤوا عليه، وقال بعضهم لبعض لا تقولوا إلا هذا، ثم قال لم يكن ذلك على التواطؤ، وإنما كان لمعنى جامع في الكل، فقد أُترفوا فاستغنوا فنسوا الله، وطغوا

---

(١) انظر : الكشاف: ٤/ ٤٠٥.

(٢) انظر : التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٢.

فكذبوا رسله، (فتول عنه) هذه تسلية أخرى... فلا تحزن فلست أنت بملوم بسبب التقصير، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد". (١)

والتعبير بالجملة الاسمية (فما أنت بملوم) للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي، وفي هذا تسلية للرسول –صلى الله عليه وسلم، لأن إعراض الكفار بسبب عنادهم، وليس بسبب تقصيره – عليه الصلاة والسلام– فما هو إلا مبلغ عن ربه، وما عليه إلا البلاغ المبين.

ولذلك عطف التذكير على التولي: **{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}**، وفي هذا العطف احتراس لئلا يتوهم السامع أن المقصود بالتولي الإعراض والتوقف عن الدعوة، فالدعوة إلى الله مستمرة (٢)، " وليكون الاستمرار على التنكير زيادة في إقامة الحجة على المعرضين؛ ولئلا يزدادوا طغيانا فيقولوا: نحن أولاء قد أفحمناه "(٣).

المطلب الثاني: نفي أن يكون الرسول ﷺ مسحورا :

جاء ذلك في موضعين من القرآن الكريم، سأذكرها على حسب ورودها في القرآن الكريم؛ لبيان خصائص الحجاج في القرآن الكريم؛ في دحض هذا الافتراء الكاذب، فما كان – عليه الصلاة والسلام – ساحرا ولا مسحورا.

الموضع الأول : قوله تعالى : **{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**

(١) مفاتيح الغيب: ١٩١/٢٨ بتصرف.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٤٥، والتحرير والتنوير:٢٧/ ٢٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٤.

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)} الإسراء [٤٧-٥٢].

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن رؤساء قريش وما يتناجون به عند سماع القرآن الكريم، واتهام الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه مسحور؛ وذلك للقدح في نبوته والمعجزات التي جاء بها، واستدلوا على ذلك باستبعاد عودة الحياة للإنسان بعد موته، وتحوله إلى رفات، فحجتهم: استبعاد عودة الحياة للرفات← محمد -صلى الله عليه وسلم- يقول بعودة الحياة للرفات← هذا قول لا يصدر عن عاقل← محمد إذن مسحور، فقد " ذكروا ما استدلوا به على زعمهم على اتصافه بما نسبوا إليه، واستبعدوا أنه بعدما يصير الإنسان رفاتا يحييه الله ويعيده"[(١)]، فكان الرد على حجتهم:

الحجارة والحديد أقوى من العظام← قدرة الله على بث الحياة في الحجارة والحديد← قدرة الله على إحياء العظام.

فالحجارة والحديد أبعد شيء من الحياة ومن جنس طبيعة البشر، ومع ذلك فالله -سبحانه- بقدرته وعظمته قادر على إعادة بعثكم حتى وإن تحولت العظام إلى حجارة أو حديد، فإذا كانت هذه قدرة الله، فإن قدرته -سبحانه- إلى إعادة الحياة إلى العظام أيسر، وهذا إشارة إلى ضعف عقولهم، فكيف يصفون الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالمسحور ؟!.

واستعمال الفعل المضارع (يستمعون) وتكراره، مع مجيء المصدر (نجوى) دون الفعل (يتناجون) للدلالة على استمرارهم في العناد والمبالغة في كثرة تناجيهم " وإذ هم نجوى: وهي المحادثة سرا، وأخبر عنهم بالمصدر للمبالغة

(١) البحر المحيط: ٥٩/٧.

في كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلا عنه، وإنما خص القول بالذكر؛ لأنه أشد غرابة من بقية آفاكهم للبين الواضح بين حال النبي وبين حال المسحور"[١].

ومرادهم بذلك: " أنه مسحور له رئي، يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه "[٢]، وهذا حجة عليهم، وليست لهم؛ فكثرة استماعهم للقرآن وتناجيهم للصد عنه فيه إشارة إلى أنهم ضمنيا يدركون إعجاز القرآن الكريم، وأنه لا يصدر عن بشر، ويدركون أيضا صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم– ورجاحة عقله، ويلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته، فكيف يكون مسحورا ؟!.

وفي قوله: **{إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ}**، إظهار في مقام الإضمار، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: إذ يقولون، وقد جاء الإظهار هنا لإبراز صفة مهمة من صفات هؤلاء المشركين وهي صفة الظلم، ولهذه الصفة وإبرازها فيه المقام دلالة مهمة في موضوع الحجاج، إشارة إلى " أن باعث قولهم ذلك هو الظلم أي الشرك فإن الشرك ظلم عظيم، أي ولولا شركهم لما مثّل عاقل حال النبي الكاملة بحالة المسحور"[٣]، دلالة على أنهم من خلال ذكر صفة الظلم أنهم بلغوا ذروة الظلم، وأقصى درجاته فسوغ لهم ذلك، ومكنهم من هذا الافتراء العظيم.

فلا غرو لمن أجاز لنفسه الظلم، وأن يكون ظالما أن يطلق الأقاويل والاتهام تلو الاتهام، ولذا فقولهم هنا: **{إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا}** هو من ظلمهم الذي عُرفوا به واشتهروا، ولا يتورع الظالم عن رمي المظلوم بكل تهمة ونقيصة، بل تراه ينوع في ظلمه ويجاهر به، ولذا ترك سبحانه الرد على هذه التهمة، فذلك أبلغ رد، وستسقط نفسها بنفسها، وسيتبين بطلانها وزيفها.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/ ١٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٧٧/٥.

(٣) التحرير والتنوير: ١٢١/١٥.

فقد أعرض عن ذلك كله وقال مخاطبا نبيه – عليه الصلاة والسلام: **{انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}** والمعنى: "انظر كيف ضربوا لك الأمثال، أي مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون، فضلوا عن الحق والهداية بك، فلا يستطيعون سبيلا، أي فلا يهتدون لطريق الحق؛ لضلالهم عنه وبعدهم منه، وأن الله قد خذلهم عن إصابته".(١)

وقد اكتفى النظم القرآني هنا بالرد على فريتهم وادعائهم أنه مسحور بهذه الآية، فقد ضرب عن ذكرهم صفحا، وأعرض عن الرد عليهم تعجبا من تخبطهم وضلالاتهم، في الحكم على الرسول من خلال هذا الزعم الذي لا وجود له على أرض الواقع نهائيا، ولا يقره عقل، ولا يسنده دليل ولا برهان.

كما أن الاستفهام التعجبي أدى وظيفة حجاجية في هذه الآيات في قوله: **{أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا}** وقوله: **{أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}**، وقوله: **{مَنْ يُعِيدُنَا}**، وقوله: **{مَتَى هُوَ}**، فجاء الرد على تلك الاستفهامات حجة عليهم بقوله: **{قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}**.

الموضع الثاني: **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)}** الفرقان [٧-٩].

سياق الآية الحديث عن تحير الكافرين في وصف الرسول- صلى الله عليه وسلم- وما جاء به، فوصفوه بالكذب وبأساطير الأولين، واتهموه بأنه رجل مسحور، "يخبر -تعالى- عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: (مال هذا الرسول يأكل الطعام كما نأكله ويحتاج

(١) محاسن التأويل: ٤٦٨/٦.

إليه كما نحتاج إليه، ويمشي في الأسواق أي يتردد فيها طلبا للتكسب والتجارة"[1]، يقولون هذا بلا حجة ولا دليل، ولذا فحججهم كلها لم تقم على أدلة ولا براهين، ولذا فهي لا تثبت ولاتدوم، ويسري إليها النقض والهدم، وإنما كانت حجتهم الباطلة في ذلك أنه يأكل الطعام، و يمشي في الأسواق:

الرسول لا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق ←محمد رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ← محمد ليس رسولا من الله.

فكان الرد على حجتهم الباطلة:

جميع الرسل السابقون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق← جميع الرسل بشر← محمد –صلى الله عليه وسلم– رسول من الله.

وقد أدى القصر وظيفة حجاجية اعتمد عليها الكفار في أباطيلهم واتهامهم للرسول –صلى الله عليه وسلم– بالسحر، فقصروا الموصوف على الصفة على سبيل الادعاء والمبالغة: (إن هذا إلا إفك افتراه) (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)، وجاء الاستفهام التعجبي **{مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}** في سياق التهكم بالرسول –صلى الله عليه وسلم، كما أفاد تكرار (قل) بصيغها المختلفة (قال، قالوا، قل) في سياق الحوار وما فيه من دحض الحجج التي استند عليها الكفار عن طريق نقل المعركة من خارج النص إلى داخل النص عن طريق القول والرد عليه " وللقرآن نزوع لافت للانتباه إلى نقل المعركة التي تدور رحاها بين الرسول وأعدائه في الخارج إلى فضاء النص، وإلى مضمار الكلام حيث يهزم الأعداء، ولا يستطيعون أن يجاوروه ". [2]

إن تحير الكفار في وصف الرسول –صلى الله عليه وسلم – بأن القرآن إفك مفترى، وأنه أساطير الأولين، وأن الرسول مسحور "كلها أقوال باطلة كل أحد ممن

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٧/٦.

(٢) الحجاج في القرآن الكريم : ص٤٧٣.

له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك "[1]، فالحوار هنا يهدم آراء الخصوم، و يعيدهم إلى داخل النص، لإقامة الحجة عليهم –والله أعلم .

وفي كلمة (الظالمون) إظهار في مقام الإضمار، ولو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: وقالوا، وفي هذا الإظهار دلالة مهمة في زعمهم أن الرسول مسحور، كما أن لها دلالة في الرد عليها ودحضها ونقضها عروة عروة، ففي الإظهار بيان للسبب، وذكر لعلة هذا الافتراء، وهذا الزعم الباطل، فهو الظلم وليس شيئا سواه، وحين يعتاد المرء على الظلم ويجيزه على نفسه فلا غرو أن تصدر منه أكذب الأوصاف وأبشعها، أوصاف لا تمت للحقيقة والواقع بصلة، وفي الظلم اعتداء وتجاوز، وتغيير للحقائق كما هو شأن كفار قريش مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وأي ظلم أشد من أن يكون الصادق الأمين ساحرا ومسحورا؟!

ولأن هذه الفرية –أن كان الرسول مسحورا– لا دليل لها تستند عليه، وليس لها باعث إلا الظلم فقد أعرض القرآن عن الرد عليها ونقضها، فحال الرسول وحقيقته أكبر من أن تخفى، وأجلى وأسمى من أن يكون ساحرا أو مسحورا، كيف وهم قوم معتدون كافرون ظالمون لا تنفع معهم المحاجة، ولا قرع الحجة بالحجة، ولذا توجه بالخطاب إلى الرسول مسليا لهم بقوله: **{انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}** وقد تضمنت هذه الآية كثيرا من الإشارات والدلالات المهمة في موضوع الحجاج، وفي تفنيد قولهم وزعمهم أنه مسحور، أشار إليها وأبان عنها أبو السعود في قوله: " انظر كيف ضربوا لك الأمثال استعظام للأباطيل التي اجترءوا على التفوه بها، أي انظر كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات، والأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع، فضلوا أي عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٧/٦.

بشيء يمكن صدوره ممن له أدنى عقل وتمييز فبقوا متحيرين فلا يستطيعون سبيلا إلى القدح في نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه، وإن كان باطلا في نفسه "[1]، ومن هنا يتبين زيف دعواهم، وتسقط حجتهم، وتظهر حجة القرآن القاهرة في رد مزاعم المشركين أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مسحورا، وحاشاه ذلك.

**

(١) إرشاد العقل السليم: ٢/٢٠٤.

الخاتمــة

هذه هي خاتمة البحث، مع هذه الآيات البالغات البليغات التي نفت عن رسول الله ﷺ الافتراءات، وردت عنه الشبهات التي صدرت من المشركين في حقه – عليه الصلاة والسلام–، فقد زعموا وافتروا أنه ساحر، وأن القرآن الذي جاء به سحر مبين، فكان الحجاج في هذا الآيات بارزا يقارع الحجة بالحجة، ويدحض كل افتراء وشبهة، ومن هنا جاءت هذه الدراسة في بيان خصائص الحجاج القرآني، وفيما يأتي أبرز النتائج التي خرجتُ بها في هذا البحث:

أولا: تعددت الآيات التي ورد فيها اتهام المشركين للقرآن الكريم بأنه سحر مبين، ورد ذلك في تسعة مواضع، وورد أنه ساحر في ثلاثة مواضع، وأنه مسحور في موضعين، وجميع تلك الآيات نازلة في العهد المكي؛ دلالة على أن هذين الموضوعين: القرآن الكريم، والرسول ﷺ من أكثر الموضوعات التي كثر فيها جدل المشركين، وكذبهم، وطالت حولها افتراءاتهم، زورا وبهتانا، فجاء الرد على تلك الافتراءات، وتلك المزاعم بكل قوة وحجة، وشكلت تلك الآيات خصائص الحجاج القرآني: أسلوبا ومضمونا.

ثانيا: في افتراء المشركين أن القرآن سحر مبين، وأن الرسول ساحر – حاشاه – فتلك منهم حيلة العاجز، وضعف الجبان، بل إن ذلك حجة عليهم لا لهم، فذلك إيمان منهم بأثر القرآن الكريم عليهم وعلى المؤمنين؛ إشارة إلى أن القرآن الكريم معجزة خارقة للعادة، لم تستوعبها عقولهم، ولم تدركها أفهامهم، ولم يجدوا تعبيرا عن هذا الأثر، ولا وصفا دقيقا له إلا أن يقولوا عنه سحر، وأن من جاء به ساحر.

ثالثا: زعمُ المشركين أن القرآن سحر مبين، وأن الرسول ساحر أو مسحور فرية ظاهرة البطلان، ومن منهج القرآن في الرد عليها في بعض المواضع الإعراض عن فريتهم، فقد ضرب عنها صفحا، فمن الرد عدم الرد، وستسقط نفسها بنفسها،

وسيتبين بطلانها وزيفها، وهذا سبيل ناجع وناجح في المحاجة والحجاج، فالسكوت موقف، والفرية ظاهر بطلانها، وهم في قرارة نفوسهم يقرون بصدق القرآن، ويعلمون علم اليقين أنه كلام رب العالمين، وأنه أبعد ما يكون عن السحر.

رابعا: لم يكن غرض المشركين في نسبة السحر إلى رسول الله ﷺ لذاته، بل كان ذلك وسيلة دنيئة منهم إلى إبطال إعجاز القرآن، وإنكار كونه قرآنا منزلا من رب العالمين، وإلى إنكار البعث والنشور، ولذا جاء الرد عليهم يبطل كل أغراضهم ومقاصدهم، ولذا لم يكن نفي السحر عن الرسول ﷺ مقصودا لذاته، بل لتنزيه القرآن من الافتراءات والاتهامات، ولتنزيه الرسول – عليه الصلاة والسلام – من كل تهمة ونقيصة.

خامسا: برز في هذه الآيات كثير من الأساليب البلاغية التي تحقق غرض الحجاج وتبرزه، ومن تلك الأساليب: التوكيد بأدواته المتنوعة، وكذلك أسلوب الاستفهام بمعانيه البلاغية المتعددة، وكذلك القصر بدلالته على النفي والإثبات، وسر توافر هذه الأساليب أن لها أثرًا وتأثيرا في تحقيق غرض الحجاج، بما تحمله من إقناع، وبما فيها من قوة وحجة .

سادسا: للإضراب حضوره في موضوع الحجاج، ففي الإعراض عن كلامهم والإضراب عنهم، والانتقال من الشبهة إلى الرد عليها، ومن ذكر الحجة إلى دحضها من الحجاج في الصميم، ولذا يكثر ورودها في موضوع الحجاج، كما في هذه الآيات، فقبل الإضراب حديث عن افتراءاتهم، وبيان لكذبهم، وبعد الإضراب رد عليها، وبيان زيفها، ودحضها، ومن هنا كان الحجاج في هذه الآيات مؤثرا بليغا.

وفي ختام هذا البحث أوصي بمزيد من الدراسات البلاغية المتعلقة بموضوع الحجاج، ودراسته في أعظم بيان وأبلغه: في البلاغة القرآنية، وفي البلاغة النبوية،

فالحجاج حاضر في هاتين البلاغتين؛ بسب مواقف المشركين المتعددة ضد القرآن الكريم، وضد الرسول الأمين – عليه الصلاة والسلام، فأوصي الباحثين بدراسة هذه الموضوعات، وبيان ما توافر فيها من خصائص بلاغية، وأساليب بيانية، تدل وتقطع ببلاغة القرآن وإعجازه، وتبرز بلاغة الرسول– عليه الصلاة والسلام .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد،،،

ثبت المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت).

٢. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، بيروت، ط: الثانية: ١٤١٤هـ.

٣. أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر، بيروت، ط١.

٤. أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير(بحث منشور)، أ. محمد يطاوي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد (٢١).

٥. الإيضاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسلامية، بيروت، (د . ت).

٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٨. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٩. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.

١٠. البيان والتبين ،لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ .

١١. التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس:١٩٨٤م.
١٢. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين بن كثير، قدم له عبد القادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.
١٣. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٤. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦ م.
١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ.
١٦. جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.
١٧. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، جامعة منوبة، منشورات كلية الآداب، بمنوبة، ٢٠٠١م
١٨. الحجاج في الحديث النبوي–دراسة تداولية–د. آمال يوسف المغامسي، الدار المتوسطية للنشر، ط١ :٢٠١٦ .
١٩. دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥ ٢٠٠٤.
٢٠. خصائص التراكيب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٥هـ
٢١. دلالات التراكيب، محمد أبو موسى،مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٣٥هـ.

٢٢. روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، دار الفكر، بيروت ط: د.

٢٣. زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٢٤. السلالم الحجاجية في القصص القرآن:(رسالة دكتوراه) للطالبة: بوسلاح فايزة، إشراف د. بن عيسى عبدالحليم، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٤.

٢٥. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .

٢٢ . في النقد الأدبي القديم عند العرب، د. مصطفى إبراهيم، مكة للطباعة، ١٤١٩هـ.

٢٣ ٠ القاموس المحيط،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: أنس الشامي و زكريا أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط: د، ٢٠٠٨.

٢٤ ٠ الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.

٢٥ ٠ لباب التأويل في معاني التنزيل،، علاء الدين بن محمد البغدادي المعروف بالخازن، تصحيح:محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٦ ٠ اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٧ ٠ لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ.

٢٨ ٠ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٢٩ ٠ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون دار الجيل، بيروت، ط: الأولى: ١٤١١هـ.

٣٠ ٠ مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي، ت: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢١هـ.

٣١ مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣٢ ٠ محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.

٣٣ ٠ معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ.

٣٤ ٠ معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٨هـ .

٣٥ ٠ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ.

* * *